218067 ـ بيان حال السلف في مزاولة أعمال الدنيا .

السؤال

كيف كان حال الصحابة مع العمل ؟ وهل كانوا يعملون أغلب اليوم ، كحال بعض الأعمال في هذا الزمان ؟ وهل كانوا يعملون بالليل ، وقت صلاة الليل والتنزل الإلهي ؟ وهل من يعمل لساعات طوال ، يعتبر عبدا للدينار والدرهم ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا :
كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعملون ، ويزاولون الكثير من الحِرف والمهن ، فمنها : التجارة ، ومنها : الزراعة ، ومنها : الأعمال المهنية ، كالحدادة والنجارة وغيرهما ، ومنها الوظائف التي تتعلق بالدولة : كالتعليم ، والعمل على الزكاة ، والقضاء وما يشبهها ، وغير ذلك من الأعمال .
انظر إجابة السؤال رقم : (107144) .

ولم يكن الواحد منهم يجلس كَلّا على أصحابه بدون عمل يعمله ، أو يسأل الناس وهو يقدر على العمل ، وقد روى البخاري (1471) عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَيَبِيعَهَا ، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ) .

ولم يمنعهم طلب العلم والصحبة الشريفة عن العمل والتكسب ، وكان كثير منهم من يتعلم العلم والقرآن ويتدارسونه بالليل ، ثم يزاولون عملهم بالنهار ، ويتكسبون منه وينفقون منه في سبيل الله ويتصدقون ، وقد ثبت ذلك عن جمع من خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفضلائهم ، لم يشغلهم في ذلك شأن عن شأن :
روى البخاري ومسلم (677) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالًا يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهُمْ: الْقُرَّاءُ ، فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ ، وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ ، وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لِأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ ، فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ ، فَعَرَضُوا لَهُمْ ، فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ ، فَقَالُوا : اللهُمَّ ، بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ ، وَرَضِيتَ عَنَّا ، قَالَ : وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا ، خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ ، فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ

، فَقَالَ حَرَامٌ : فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ : (إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ ، وَرَضِيتَ عَنَّا) .

ولم يكن حالهم كحال الناس اليوم من الإقبال على الدنيا والانشغال بها ، بل كانوا على حال عظيم من الزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، فلا يعملون لها العمل كله ، ويعطون الهم كله ، بل كانوا يكفون بها أنفسهم عن الناس ، ثم لا ينشغلون بشيء من أمرها ، عن أمر الآخرة .

قال الحسن البصري رحمه الله ، يصف حالهم رضي الله عنهم : " أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْرِضُ لِأَحَدِهِمْ حَلَالَهَا ، فَيَدَعُهَا ، فَيَقُولُ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي عَلَى مَا أَنَا مِنْ هَذِهِ ، إِذَا صَارَتْ فِي يَدَيَّ " ، كما في " الزهد " لابن المبارك (1/ 178) ..
وقال أيضا : " لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا لَا يَفْرَحُونَ بِمَا أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَا يَأسونَ عَلَى مَا أَدْبَرَ مِنْهَا "، كما في " حلية الأولياء " (6/ 270) .
وقال : " أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كان أَحَدِهِمْ أَشَحُّ عَلَى عُمُرِهِ مِنْهُ عَلَى دِرْهَمِهِ " ، كما في " شرح السنة " (14/ 225) .

وهذا كله بخلاف حال الناس اليوم ، من الانشغال بالدنيا عن الآخرة ، كما هو مشاهد معلوم .

ثانيا :
أوقات أعمالهم تختلف بحسب طبيعة عمل كل منهم ، وإن كان غالب عملهم يكون بالنهار ، وبالليل يتفرغون لصلاة الليل وتلاوة القرآن والاستغفار ، وخاصة في الثلث الأخير من الليل ، ولم يكن أمر الناس في ذلك الزمان ، مما يقتضي عملا بالليل ، إلا أن يكون أمرا نادرا جدا ، بخلاف ما تقضيه طبائع الأمور ، وتعقد الحياة اليوم .

وليس في مجرد العمل بالليل ، أو العمل لساعات طوال : مذمة ، ما دامت بالناس ضرورة أو حاجة إلى ذلك ، وسواء كان ذلك لأجل مصلحة عامة للناس ، كما هو حال الشُرَط ، والأطباء ، ونحو ذلك من المهن التي لا يستغني الناس عن وجود من يسعفهم فيها ، ويقوم بحاجتهم إليها ليلا ونهارا .
وإنما مرد ذلك : إلى انشغال العامل في ذلك عن أمر دينه ، بأمر دنياه ، أو يحمله على زيادة عمله ، ومواصلة الليل بالنهار ، فرط طمع وتعلق بالدنيا ، واستكثار منها ، لا قضاء حاجة ، له ، أو لغيره من الناس .

ورغم ما كانوا عليه من العمل ، والمهن الشاقة ؛ فإنهم كانوا أعظم الناس قياما بين يدي ربهم ، وأحسنهم إحياء لليل ، ومناجاة لرب العالمين : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) السجدة/ 16 .

روى النسائي في " الكبرى " (11855) عن بِلَال بْن سَعْدٍ ، قَالَ : " أَدْرَكْتُهُمْ يَشْتَدُّونَ بَيْنَ الْأَغْرَاضِ، [يعني : يتسابقون في الجري] ، وَيَضْحَكُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ ، كَانُوا رُهْبَانًا " .
وروى أحمد في " الزهد " (ص231) عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : " وَاللَّهِ ، لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا ، وَصَحِبْتُ طَوَائِفَ مِنْهُمْ ، مَا كَانُوا يَفْرَحُونَ

بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَهِيَ كَانَتْ أَهْوَنَ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ هَذَا التُّرَابِ ، كَانَ أَحَدُهُمْ يَعِيشُ خَمْسِينَ سَنَةً لَمْ يُطْوَ لَهُ ثَوْبٌ قَطُّ ، وَلَا نُصِبَ لَهُ قِدْرٌ ، وَلَا جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْضِ شَيْئًا ، وَلَا أَمَرَ فِي بَيْتِهِ بِصَنْعَةِ طَعَامٍ قَطُّ ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ : فَقِيَامٌ عَلَى أَطْرَافِهِمْ ، يَفْتَرِشُونَ وُجُوهَهُمْ ، تَجْرِي دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ ، يُنَاجُونَ رَبَّهُمْ فِي فِكَاكِ رِقَابِهِمْ ، كَانُوا إِذَا عَمِلُوا الْحَسَنَةَ دَأَبُوا فِي شُكْرِهَا ، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَهَا ، وَإِذَا عَمِلُوا السَّيِّئَةَ أَحْزَنَتْهُمْ ، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا ، فَمَا زَالُوا كَذَلِكَ عَلَى ذَلِكَ " .

ثالثا :

روى الإمام أحمد (17309) ـ وصححه الألباني ـ عن عَمْرَو بْن الْعَاصِ رضي الله عنه قال : بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ ثُمَّ ائْتِنِي ، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ ، فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ ، فَقَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ ، فَيُسَلِّمَكَ اللَّهُ وَيُغْنِمَكَ ، وَأَرْغَبُ لَكَ مِنْ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً .

قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !!!

فَقَالَ : يَا عَمْرُو ؛ نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ ، لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ !!

فالمذموم ، الذي هو عبد المال والدنيا : إنما هو من جعل الدنيا أكبر همه ، وانشغل بها بالليل والنهار ، وأنفق ساعات عمره في طلبها ، وعكف عليها ، يجمع المال من حله وغير حله ، تكثرا ومباهاة ورغبة في متاع الدنيا الزائل ، لا يصل به رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ) رواه البخاري (6435) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

" قَوْله (عَبْد الدِّينَار) أَيْ طَالِبه الْحَرِيص عَلَى جَمْعه الْقَائِم عَلَى حِفْظه , فَكَأَنَّهُ لِذَلِكَ خَادِمه وَعَبْده . قَالَ الطِّيبِيُّ : قِيلَ خُصَّ الْعَبْد بِالذِّكْرِ لِيُؤْذَن بِانْغِمَاسِهِ فِي مَحَبَّة الدُّنْيَا وَشَهَوَاتهَا ، كَالْأَسِيرِ الَّذِي لَا يَجِد خَلَاصًا .

وَلَمْ يَقُلْ مَالِك الدِّينَار وَلَا جَامِع الدِّينَار ؛ لِأَنَّ الْمَذْمُوم مِنْ الْمِلْك وَالْجَمْع : الزِّيَادَةُ عَلَى قَدْر الْحَاجَة . وَقَوْله (إِنْ أُعْطِيَ إِلَخْ) يُؤْذِن بِشِدَّةِ الْحِرْص عَلَى ذَلِكَ .

وَقَالَ غَيْره : جَعَلَهُ عَبْدًا لَهُمَا لِشَغَفِهِ وَحِرْصه , فَمَنْ كَانَ عَبْدًا لِهَوَاهُ ، لَمْ يَصْدُق فِي حَقّه (إِيَّاكَ نَعْبُد) ؛ فَلَا يَكُون مَنْ اِتَّصَفَ بِذَلِكَ صِدِّيقًا " انتهى .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :

" مِن الناس من يعبد الدنيا ؛ أي: يتذلل لها ويخضع لها ، وتكون مناه وغايته ، فيغضب إذا فقدت ، ويرضى إذا وجدت ، ولهذا سمى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذا شأنه عبدا لها ، وهذا من يعنى بجمع المال من الذهب والفضة ، فيكون مريدا بعمله الدنيا " انتهى .

"مجموع فتاوى ورسائل العثيمين" (10/ 724) .

وينظر للفائدة : إجابة السؤال رقم : (143194) .

والله أعلم .